

لو كنت أعلم شيئاً نافعاً لوطني مضرًا للجنس الإنساني لأبقيت عليه كما أبقي على جريمة ارتكبتها مونتسكيو.

أحرى الناس بالاستماع من يعمل الكلام لتعبير عن الفكر والفكر لبيان الحقيقة والفضيلة فينون.

غرائب الغرب

الطباعة الباريزية

ألمنا مرات في الفصول السالفة إلى تفنن الباريزيين في الأمور الدوقية والطباعة من جملة فنون الدوق وإن كانت تتوقف على علم وفضل تجربة. وأجور الطبع هنا غالية لغلاء الأسعار وأجور الدور والمنازل فالعامل الجيد لا يرزق أقل من نصف ليرة وأقل عامل لا يرزق أقل من أربعة فرنكات في يومه. ولذلك ترى بعض أرباب التجارات وغيرهم من المؤلفين والطابعين يطبعون مجلاتهم وكتبهم في مطابع الولايات لرخص أجورها وجودة طبعها الذي لا يختلف عن المطابع الباريزية في شيء.

ومن جملة المطابع العظيمة التي زرقتها مطبعة الأمة أي مطبعة الحكومة التي أسسها لويز الثالث عشر سنة ١٦٤٠ ثم نقلت إلى قصر الكاردينال روهان من أجل القصور الباريزية القديمة المعروف ببيت أساقفة ستراسبورغ. وقد أنشئت لها بناية هائلة في شارع الكنفانسيون لضيق هذا المكان على سعته البالغ سطحها عشرة آلاف متر مربع.

تدخل من الباب فترى في فناء الدار تماثيل غوتنبرغ ومخترع الطباعة والمخض على الإنسانية معولاً من البرونز فلا تتناك من الدعاء له وذكر يعض أياديه على العالم ثم يأخذك الدليل في الوقت الذي تعينه لك من قبل إدارة المطبعة ويطوف بك قاعات

مسابك الحروف في ثمانين لغة واللغة العربية في مقدمة لغات الشرق رأيناهم في بعض الغرف كتبوا بيتاً من الشعر العربي ليسرن الأستاذ العملة على تعلم هذه اللغة فيحسنوا تنضيد حروفها بفهم.

ثم طاف بنا الدليل قاعات التنضيد والتجديد والطبع والطبي فرأينا كل شيء قد جعل في مكانه اللائق به والعملة والعاملات يعملون في مكان واحد كضماً إلى كتف وقد يتولى الأعمال الشاقة الرجال من دون النساء. وعدد العاملين والعاملات في المطبعة يناهز الألف والخمسمائة وفيها ما يربو على ستين آلة طابعة على آخر طرز منها خمس آلات من المعروف بالروتاتيف وعلى مثلها تطبع جميع الجرائد الكبرى في اغرب اليوم. وتتفق الحكومة على هذه المطبعة نحو تسعة ملايين فرنك مساهمة وفيها تطبع الجريدة الرسمية ومطبوعات الحكومة والنظارات ومناشيرها وفهارسها وأوامرها فالاستعداد فيها تام لكل ما

تطلب الحكومة طبعه وليس في وقتها متسع لطبع مطبوعات الأفراد وناهيك بمطبعة حوت من الأدوات ما يلزمها من سبك الحروف حتى التجديد وناهيك بكثرة أشغال حكومة الجمهورية التي تقع ميزانيتها وحدها في ثلاثة آلاف صفحة كبيرة يطلب طبعها في وقت قصير وهذا لا يتيسر إلا بمطبعة متقنة جداً.

ولهذه المطبعة معامل لتصوير الشمسي وطبع الصور والطبع الخفور اخوف والحفر على الخشب والحفر على النقش والحفر الناتئ على النحاس والزنك والطبع الملون وطبع الحجر والتصفيح والطبع المنحس وغير ذلك من التفنن في الطباعة. وتسبح المطبعة

بإعارة الطابعين بعض الحروف الغريبة من اللغات الأجنبية ولا تطبع من الكتب إلا ما كان بلغة غريبة لا يوجد من حروفها في كل مطبعة وذلك لحض خدمة المعارف والفنون. هذه جملة ما يقال في مطبعة الأمة ولو جمعت مطابع مصر كلها ما دانتها بالمكانة وكذلك لو جمعت مطابع الأستانة وأضفت إليها مطابع الولايات العثمانية برمتها والمطبعة التي تنفق عليها الحكومة نحو أربعائة وخمسين ألف ليرة في السنة يستحيل على حكومة كالخكومة العثمانية والمصرية أن تقوم بمثلها وهي لا تنفق على المعارف كلها نحو هذا القدر من المال أو أكثر منه بقليل فتأمل.

مدرسة فرنسا

من المعاهد التي استغرقت شطراً كبيراً من وقتي في باريز دروس مدرسة فرنسا (كوليج دي فرانسي) لسهولة التلقي فيها في كل علم يحظر في البال ولأن هذه المدرسة ذكرتني بمدارس الإسلام أيام حضارتنا وقد جعلوا العلم مباحاً لكل طالب يلقونه إياه بلا عوض. في شارع المدارس بالقرب من كلية السوربون قام بناء عظيم أسسه فرنسيس الأول ملك فرنسا حوالي سنة ١٥٣٠ وجعل فيه درسين الأول لتعلم اللغة الرومية والثاني للعبراية وسمى المدرسة مدرسة الملك فرأت الكنية إذ ذاك أن قد استهين بها فأوعزت إلى مدرسة اللاهوت أن تتهم مدرسي مدرسة الملك بأنهم يدعون إلى الزندقة فحال الملك دون صدور الحكم عليها وأضاف إلى المدرسة درساً في الفصاحة اللاتينية ليخلص وجهاته من قسمة الإلحاد وما زال عدد الدروس يزيد على عهد الملوك حتى أضاف إليها هنري الثالث درس العربية ونايليون الأول درس التركية ولم يبرح بناءها ودروسها عرضة للنقب والإبدال

حتى عهد الجمهورية الثالثة.

ولقد أصبحت هذه السنة الدروس التي تلقى على الناس مجاناً ٤٩ درساً يصح أن يقال أنها مجموع علوم البشر يعول تدريسها أعظم أساتذة هذه البلاد وعلمائها من اشتهروا بفن أو علم أو لغة وصرفوا في البحث فيه شطراً مهماً من حياتهم ولم أر في هذه المدرسة أستاذاً نقل سنده عن اثنين إلا بعض المعاونين ممن يتجاوزون الأربعين وينتخبهم الجمع العلمي أو الجامع العلمي الخمسة وأساتذة المدرسة ويقبض الأستاذ عشرة آلاف فرنك في السنة ولا تتجاوز مدة الدروس ستة أشهر يتلو في خلالها درسين في كل أسبوع فقط.

أما العلوم التي تلقى على جمهور المستمعين فهي (١) علم الأثقال التحليلي والسنائي (٢) العلوم الرياضية (٣) علم الطبيعة والرياضة (٤) الطبيعة العامة والتجريبية (٥) الكيمياء المعدنية (٦) الكيمياء العضوية (٧) الطب (٨) علم الحياة العامة (٩) تاريخ الأجسام الغير العضوية الطبيعي (١٠) علم تكوين الجنين (١١) التشريح العام (١٢) علم النفس التجريبي (١٣) تاريخ العلوم العام (١٤) تاريخ التشريع المقابل (١٥) الاقتصاد السياسي (١٦) الجغرافيا والتاريخ والإحصاء الاقتصادي (١٧) تاريخ العمل (١٨) جغرافية فرنسا التاريخية (١٩) تاريخ الأديان (٢٠) الفلسفة الاجتماعية (٢١) علم الاجتماع الإسلامي (٢٢) علم الجمال وتاريخ الفنون (٢٣) علم الكتابات والعاديات الرومانية (٢٤) الكتابات والعاديات اليونانية (٢٥) الكتابات والعاديات السامية (٢٦) الآثار المصرية وأصول لغاتها (٢٧) الآثار الآشورية وأصول لغاتها (٢٨) الآداب العبرانية والكندانية والسريانية وأصول لغاتها (٢٩) الآداب العربية واللغة العربية (٣٠) النقود القديمة ونقود القرون الوسطى (٣١) آداب اللغات الصينية والتربية

والمنشوية ولغاتها (٣٢) آداب اللغة السنسكريتية (٣٣) آداب اللغة اليونانية (٣٤) فقد
 اللغة اليونانية (٣٥) تاريخ آداب اللاتينية (٣٦) التاريخ الوطني والعاديات الوطنية
 (٣٧) الفلسفة الحديثة (٣٨) اللغة الفرنسية وآدابها في القرون الوسطى (٣٩) اللغة
 الفرنسية الحديثة وآدابها (٤٠) أصول اللغات الجرمانية وآدابها (٤١) لغات أوروبا
 الجنوبية وآدابها (٤٢) اللغات والآداب السنية (٤٣) اللغة السلافية وآدابها (٤٤) علم
 النحو المقابل (٤٥) العاديات الأميركية (٤٦) الرياضيات (٤٧) تاريخ فن الموسيقى
 (٤٨) التاريخ العام والطريقة التاريخية (٤٩) أصول اللغات الهندية والصينية وتاريخها.

هذه العلوم التي تدرس في مدرسة فرنسا ولا يستغرق الدرس منها ساعة يتلو في خلالها
 الأستاذ زيادة عنده ويبحث ولا يكثر المستمعون إلا في بعض الدروس التي رزق أستاذها
 فضل بيان وطلاقة لسان وأكثر الحضور غرياء أي غير فرنسيين وفيهم كثير من الفتيات
 طالبات العلم من قصدن فرنسا من ألمانيا وإنجلترا وروسيا والنس وإيطاليا وبنغاليا
 ورومانيا والصرب والسويد وأميركا ليغترفن من مدارس باريس ويحكن لفتها الجميلة.
 فكان أهل هذه العاصمة زهدن في حضور هذه الدروس المجانية وأزهد الناس في الرجل
 أهله وجيرانه. وإن دروساً يعد من جملة أساتذتها لفاصور وبول لوروا بوليو الاقتصاديين
 وماسيرو وغانو الأثريين وجوليان ومونو المؤرخين وبرجسون وريو الفيلسوفين وغيرهم
 من الأئمة الأعلام لحرية بأن يستفيد منها كل طالب ويغترف من درر بحورها عاشق
 العلم.

وإن هذا المعهد ليولي فرنسا شرفاً ليس وراءه غاية ويدل على تفانيها في نشر المعارف
 والأخذ بأيدي القاصين عليها وينادي بلسان الحال والمقال على توالي العصور والأجيال

أن فرنسا إذا هزمت في سياستها وأخلاقيها فهي على الدمار فية في جهال عندها وحدة حكمتها.

التجارة الباريزية

لم يكف الفرنسيون بل الغربيون بما بلغوه من أسباب الراحة والرفاهية بل تراهم يعنون لينهم وفنارهم لثلا يسبق بند بندا آخر أو ممكة ممكة أخرى كان المنافسة التي هي من أعظم عوامل الارتقاء قد تحسنت في صدر الكبير والصغير من الإفرنج فكان من آثارها ما يبهونا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة.

رأيت روح الاجتماع متحركة في أعمال الأوروبيين فلا يكاد يأتي زمن قليل حتى تصبح جميع مشاريعهم وأعمالهم شركات وجمعيات ليخفى عمل الفرد ويظهر عمل الجماعة ويتراجع ضعف الواحد أمام قوة المجموع فقد ظهرت لتلك الأمم نتائج الاشتراك جماعة ظهوراً لا ينكره إلا من يكابر حسه ويغش نفسه فأنشأ من كانوا إلى الانفراد في متاجرهم ينضمون بعضهم إلى بعض ومن عاشوا بالوحدة يرجحون ويخسرون فلا يدري بهم أحد عدلوا عن سالف طريقهم واقتدى المتأخر بالمتقدم أو العناصر اللاتينية والسلافية بالعناصر الإنكليزية السكسونية.

مثال ذلك مدينة باريز مهد الحضارة اللاتينية فإنك تجد معظم مشاريعها ومتاجرها ومصانعها لشركات ومشاريع الأفراد ومتاجرهم ضعيفة ضئيلة لا تكاد تحيا حتى تموت ولكنها آيلة طوعاً أو كرهاً إلى الاندماج في تلك الاشتراك مع الجماعة. دخنت كثيراً من مخازن باريز فكنت أشهد على قلعة إلهامي بغن التجارة روح الجماعة مرفرفة عليها وتعدد القوى زائدة في ثنائها وحسن الذوق وسلامة الإبداع تتخلل أرجاءها وتزيد بماءها.

باريز أعظم بلد تصرف فيه السوق المالية والتجارية والصناعية من فرنسا ورؤوس أموالها مقدمة جميع متاجرها ولا تفوقها في ذلك إلا لندر. وقد بلغ عدد ما في باريز من البيوت المالية والمصارف وشركات الضمان فقط زهاء ألفي محل توشك أن تكون كلها لشركات وأعظم متاجر باريز بل فرنسا تجارة الأطعمة الخضرة والأمتعة والثياب والأزياء وكنها مهنة جداً لا يكثر عددها بل بمكانتها وفخامتها وانتظام أعمالها.

زرت بعض هذه المخازن من مثل لابل جارندنير والرتان والبون مارشه والنوفر ولافيت ودوقايل وكل واحد منها يبتاع بما حوى قطراً واسعاً من أقطار الشرق ويحتاج وصفه إلى الكلام ساعات على شرط أن يكون المتكلم عارفاً بالتجارة وما يتصرف أو يتوقف عليها وتتوقف عليه وكل مخزن يعد مستخدموه وموظفوه بالمئات ففي مخزن دوقايل وهولفرش الدور والقصور وما ينزم لها من الأثاث والخزني والرياش والأواني والسرر والصناديق والمقاعد والمتكات والكراسي وأدوات الطبخ وكل ما يتصرف تحت أنواع الزينة والتبرج والبذخ والرفاهية ما يأخذ بمجامع القنب ويعد من أغرب غرائب الغرب. ولا يقدر المرء أن يطوف هذا المخزن في أقل من ثلاث ساعات إذا أحب أن ينقي نظرة واحدة على ما فيه من التحف والأمتعة الشينة وهو قصر فخيم جداً لم أر أجمل من نقوشه البديعة وبناته العظيم سوى متحف النوفر ومتحف فرسال ودار الجنس البندي الباريزي. وفي مخزن دوقايل محل للتشيل ومحل للموسيقى ومحل للألعاب السينما توغراف يخفف إليها الزائرون بأجور معتدلة جداً والغرض منها أن يمروا ببعض مخازن ذاك الخلل الكبير فيكون مرورهم بها والقاء أنظارهم عليها بمثابة إعلان عما فيها من الأعلاق النفيسة وبركة الإعلان يشتري من لم يكن تحدثه نفسه بالشراء.

ومن الغريب أن هذا المكان الذي لا يشبهه في الفخامة إلا أرقى قصور المنوك والأمم كما أخذ الآن في توسعة مخازنه لأنها ضاقت به على سعتها وما أدري ما هو رأس ماله ولا مقدار أرباحه وعدد مستخدميه وغاية ما رأيت أن مصرفه أشبه بمصرف كبير بل هو في سعته وكثرة مستخدميه أشبه بمصرف الكريدي ليونيه في القاهرة لا في باريز فإنه هناك العجب العجيب بعينه.

وقرأت في إحصاء أخيراً أن مخزن لا فاييت أحب أن يزيد رأس ماله فقرر مساهمته أن يزيدوه اثنين وعشرين مليوناً ونصف مليون من الفرنكات فإذا كان مخزن واحد زاد رأس ماله في جلسة نحو مليون ليرة عثمانية فكم يكون أصل رأس المال.

ومما هو حري بالنظر في المسائل الاقتصادية أن أهل باريز على شدة كرههم للألمان يتناحون في بندهم البضائع الألمانية لرخص أسعارها والتفنن في إبداعها حتى كادت بضائع الألمان تأتي على بضائع فرنسا مع جودة هذه ومثانتها وأصبحت بذلك معظم البيوت التجارية لأناس أو لشركات من الألمان وغيرهم ومثل ذلك قل على ما قرأته في إحدى الجلات عن تجارة لندرا أو تجارة نيويورك فإن القسم المهم منها بيد الألمان يصرفون على الإنكينز والأميركان سنعهم وحكومة إنكلترا وأميركا مع شدة حرصهما على مصنعة قومهما التجارية لم تستطعا بالتعاريف الجمركية ولا بغيرها أنت تقينا سداً مريعاً دون تسرب البضائع الألمانية إليهم. ولكن ألمانيا أو العصر الجرمانى ومن لف لفه تحارب هذه الحرب التجارية بسيف العلم والمعارف وسدود الدول لا تقوى على صد هجماتها المعقولة.

ذكر الإحصائيون أن مدارس ألمانيا تخرج كل سنة أربعين ألف طالب ويدهم الشهادات التجارية فأين يذهب هؤلاء الرجال بعد؟ وهل لهم إلا أن يصرفوا متاجرهم في مشرق الشمس ومطعمها بالطرق الاقتصادية المدهشة. فكم رجل تخرج من البلاد المصرية العثمانية يا ترى حتى الآن في المعارف التجارية وكم طالب أتقن اللغة الألمانية منا حتى أصبح يكتب فيها ويترجم منها وإليها كنا يكتب الفرنسية أو الإنكليزية ويترجم بها منها؟

قال لي أحد علماء الألمان أتدري بأي شيء غننا الفرنسي في حرب السبعين قنت لا أعلم قال غنناهم لأننا كنا عارفين بما عندهم أما هم فلم يكونوا يعرفون ما عندنا وأنا أقول أن اقتصارتنا معاشر العثمانيين والمصريين والسوريين خاصة عني تنعم اللغة الفرنسية في

الأكثر هو من الاحتكار الضار فيجب أن نعرف أو بعضنا لغة أمة كبرى تريد أن تحارب العالم حرباً اقتصادية حتى لا يكون مثنا مثل الفرنسي مع جيرانهم الألمان قبل حرب السبعين جهنوا ما عندهم فحسروا في ماديتهم ومعنوياتهم.

نعم تتوفر عني الأخذ من أوروبا كل ما تمتاز به مملكة من ممالكها فنحول وجهتنا بعد الآن إلى جرمانيا لتعلم عنومها واقتصادها ومتاجرها وبريتها ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق وعن إنكلترا السياسة والعنوم والبحرية وعن إيطاليا الصنائع النفيسة ونجعل للغة الألمانية والإيطالية حظاً من عنايتنا حتى لا نكون حكرة مضرّة لحكومة خاصة من حكومات الغرب فنحن كما نريد في السياسة أن نعامل الدول كنهن بوتام يجب أن نأخذ عن كل دولة راقية أحسن ما عندها حتى لا نكون من الجامدين عني أمة بعينها

والحامدون في مسائل الدين كالحامدين في مسائل الدنيا لا يخنو حالم من ضرر على
المجمع.

الإعلان أساس التجارة

تقدم في الفصل السالف أن البيوت التجارية في باريس تباع بركة الإعلان عن نفسها وهنا
مجال لأن أفضل ذاك الكلام الجمل فأقول: كل من زار مدينة أوروبية أو أميركية من أبناء
هذا الشرق الأقرب يأخذه العجب من وفرة الإعلانات وتفتتهم في نشرها والفرنسيين
في الإعلانات مقلدون لا يجتهدون قلدوا الأميركيين والإنكليز وهؤلاء يتفوقون عليها
نفقات لا تكاد تصدق فقد ذكروا أن معمل الموازين فيريانك وشركاؤه الذي كان ينفق
على الإعلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك مساهمة أخذ اليوم ينفق نحو ثلاثة ملايين ونصف
فرنك وقد كان خصص أحد معامل الصابون ثلاثين ألف ريال للإعلان عن مصنوعاته
وهو اليوم يصرف ألف ريال في اليوم وتخصص المعامل الكبرى التي تباع بالمفروق في مدينة
نيويورك وحدها زهاء أربعة ملايين ريال في السنة لنشر إعلاناتهم وقد أنفق أحد أصحاب
المخازن لإرسال طبعة واحدة من الإعلانات بطريق البريد ٦٤٠ ألف ريال وليس من محل
في أميركا إلا ويصرف خمسة في المئة من أرباحه على الإعلانات وقد أنفق أحدهم ٧٥٠
ألف ريال للإعلان عن موسى له فباع ستة ملايين موسى وكذلك فعل توما بيشام بحبوبة
فصرف للإعلان عنها مليوني جنيه.

فاشتهار اسم المعمل أو صاحبه من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي وتردداه في أفواه
أرقى الأمم وأوحشها موقوف على كثرة التفتن في الإعلان عنه والبذل في هذا السبيل
عن سعة حتى قال كارنجي أعظم أغنياء الأميركيين: إذا أردت أن تباع قبة بريال فإنك

تطيع أن تباعها بريالين إذا وضعت اسمك عليها وذلك لأنك تفهم الناس بأن لا اسمك بعض القيمة.

وذكروا أن شركة ولن سي الأميركية وهي شركة معامل أصواف مؤلفة من ٢٧ معبلاً رأس مالها ٦٩٠ مليون ريال وكانت مجموع أرباحها سنة ١٩٠٢ ١٨٧ .٠٠٠ .٠٠٠ .٠٠٠ عنى حين بلغ مجموع المنسوجات الصوفية المصنوعة في الولايات المتحدة كنها ملياراً و ٤٨٥ مليون ريال فبيدها جزءاً من ثمانية أجزاء من عمل الصوف ذكروا أنها توصلت بفضل التفتن في الإعلان عن نفسها إلى أن كادت جزءاً عظيماً آخر من أرباح الشركات الأخرى إن لم تكن انتهتها حتى الآن.

والطرق إلى ذلك مختلفة فمن ضروب الإعلانات الإعلان في الجرائد والمجلات عنى اختلاف أنواعها ووضع صفائح منحة في الصفحة السابعة أو الثامنة أي الأخيرة وإعلانات في شبك ودس الإعلانات في أخبار الجرائد وبين أخبار الرياضات والسباق ودور التمثيل والأزياء وإدماجها في المقالات وتعليقها على حيطان الدور وفي شوارع المدن والقرى وعنى طول السكك الحديدية وفي أماكن الترهة والمناظر التي يسرح فيها النظر وفي عجالات الحوافل والترامواي والسكك الحديدية تحت الأرض وفوق الأرض وستور دور التمثيل والقصور وجميع الأماكن العمومية حتى المراحض وترسم الإعلانات عنى القرطاس الذي يضعه الكاتب تحت يده وعنى المقطع والمكاكين وعبة عيدان الكبريت والدواة واليارموتر وكتب التقاويم وورق النشاف وبطاقات البريد وتجعل من الورق الملون والمقوى والزجاج والخزف والخشب والمعدن وغيرها. وتبدو في المساء بألوان مختلفة مقطعة بادية بالكهرباء وغيرها مما يطول ذكره.

ومن غريب تفننهم في الإعلانات أن مخزون أدوات نحاسية وحديدية في ليفربول أخذ يعلن في جرائدها بأنه يقدم مفتاحاً بلا ثمن لكل من يضع مفتاح بابيه أو خزانته بهذه الوساطة كان يأتيه المضيع فينصح له الحل بأن يبتاع قفلاً كاملاً ويغير القفل القديم حتى لا يقع المفتاح في يد لص وربما هانت عليه السرقة فبعض الناس يبتاعون وبعضهم يكتفون بأخذ مفتاح بلا ثمن ولكن النصح يفعل في أكثرهم. واختراع أحد البدالين من بائعي المأكولات الخضرة في لندرا طريقة للإعلان عن محله بأن اغتنم فرصة حصور جوق تمثيل فابتاع مئات من الكراسي لمستخدمي محله أدخلهم على نفقته فتحدث القوم بذلك وذكرته الجرائد فحصل للسجل بالإعلان عن نفسه. ومن غريب تفننهم أن أحد مخازن القبعات في بنيسبور في أميركا أعلن في الجرائد أنه يريد أن يعرف أحد النساء اخكوم عليهن بالقتل فاهتدى إليها وأعطاهها مئة ريال على أن تقول قبل ضرب عنقها هذه الجملة كل ما أستطيع أن أقوله الآن هو أن محل المستر بلانك يعمل أحسن القبعات بريالين ثم قطع عنقها واغتنى صاحب المعمل.

والأمثلة على ذلك كثيرة ويكفي إلقاء النظر على أي حائط أو مجلة أو جريدة لنعرف مبلغ تفنن الغربيين في الإعلان والأساليب في الكتابة التي يختارونها والصور المتنوعة ومنها المضحك وغيرها الجدي وبعضها لطيف وآخر بشع ومنها السياسي والأدبي والعلمي وقد جعل الإنكليز السكونيون للإعلانات قواعد حتى صارت علناً من العلوم لا يبرز فيها إلا من حسن ذوقه وعرف النقش والرسم والتصوير والطباعة وكان ملئاً بالاقتصاد السياسي وعلم النفس ومحيطاً بعالم المالية والصناعة والتجارة والجرائد والمجلات وكان ذا

هبة بالتفنن والأدب والخطابة حاسباً كاتباً مقنعاً يعرف التفنن في المسائل الحاضرة أو يحسن علم الحال.

ولا تعيش معظم الجرائد والجلات الكبرى إلا بأجور إعلاناتها حتى أن أجرة صفحة واحدة مرة واحدة في جريدة لادي هوم جورنال تؤجر بألف جنيه. ويؤخذ من إحصاء صدر سنة ١٩٠٠ أن في الولايات المتحدة ١٨٢٢٦ جريدة ومجلة تبلغ مجموع ما يطبع من أعدادها من كل نسخة ١١٤. ٢٢٩. ٣٣٤ ومجموع ما تطبعه في السنة ٨. ١٦٨. ١٤٨. ٧٤٩ وبلغ مجموع إيراداتها تلك السنة ٨٧٨. ٩٤٨. ٢٥٠ فرنكاً منها ٤٧٩. ٣٠٥. ٦٣٥ فرنكاً من أجور الإعلانات أي ٥٤. ٥ في المئة من مجموع دخلها وتطبع بعض الجرائد نسخاً خاصة بنشر الإعلانات فقط وتوزعها على مشتركيها ومن الجرائد ما لا يطبع غير الإعلانات وتوزع مجاناً. ويصرف أحد بيوت الثياب في فيلادلفيا نصف مليون فرنك في السنة أجرة صفحة واحدة من إحدى الجرائد الكبرى في تلك المدينة اسمها لروكورد ويصرف مخزن آخر يريد منافسته مليون فرنك على أربع جرائد. ومن كتاب الإعلانات

من يرزق ألف ليرة في السنة.

ومن الإعلان الغريب أن بعض التجار لهم بيوت ولا مخازن بل هم يطبعون إعلانات وينشرونها في قوائم خاصة وعلى صفحات الصحف والكتب والرسائل فيرسل الطالبون بالبريد يطلبون منهم ما يشاؤون من بضائع ومأكولات وهم يرسلونها إليهم بالبريد أيضاً وهذه الطريقة اخترعت في الولايات المتحدة لأن ثلاثة أرباع سكانها يعيشون في القرى والمزارع بعيدين عن مراكز التجارة وأشغالهم لا تسمح لهم بالاختلاف إلى المدن لايتباع

ما يشاؤون وهذه الوساطة يوفرون عليهم غناء التعب والمساومة ويصلهم ما يشتهون وهم في أعمالهم ونافيت بما في هذه الطريقة من تبادل الثقة بين التاجر والشاري وفي شيكاغو وحدها تباع مثل هذه الخال التجارية في السنة بما قيمته ملياران وخمسة مئليون فرنك وأن ثلاثة محال منها لتأخذ وحدها كل يوم خمسة وعشرين ألف رسالة في طلب ما ينزم أصحابها. وقد حسبوا أن عشرة ملايين أي ثمن أهالي الولايات المتحدة يتعاونون حاجياتهم على هذه الكيفية.

وأن لأحد هذه الخال التجارية في شيكاغو زبناً ينفقون مليوني نسمة يتناول منهم في السنة أربعة ملايين رسالة وهذه الرسائل لا تفتح واحدة واحدة بل تجعل كل ستين منها في آلة تفتح كلها بنحطة ثم ترسل إلى مئات من البنات تجعل كل قسم مع قسم وكل طلب مع ما يضارعه وتعمل في لوالب كهربائية لا تقل عن خمسة عشر ألف لولب وترسل في أسرع ما يمكن إلى البيوت التي تقدم للنحل طلباته وهي لا تقل عن ٧٧ ألف نوع فتأتي كلها على جناح البرق بحيث يكون العمل ما أمكن مستغنياً عن الأيدي الكثيرة على أن محلاً واحداً من هذه الخال التجارية التي تباع بالمراسلة عنده من المستخدمين ٦٢٠٠ مستخدم ولم يكن صاحبه قبل ربع قرن يملك ليرة واحدة وثروته تعد اليوم بملايين الليرات والناس يطنبون إلى محله وإلى غيره من الخال التي عنى شأكلته كل ما يحظر بياهم ومنهم من يطنبون أو يطنبن الزواج بواسطته.

وعنى الجملة فإنك لا ترى في ديار الغرب محلاً تجارياً أو معبلاً أو مشغلاً بالفنون الجمينة بل ولا عالماً ولا كاتباً ولا صانعاً إلا وينفق جزءاً من ماله على الإعلانات ليربح المئات وللإعلان يد طويل في عامة الأعمال الصناعية والزراعية والعينية ولولاها ما رأينا

المخازن الكبرى والجرائد الكبرى فعسى أن يقتدي الشرق بأخيه الغرب في هذا السبيل فيعلن خصوصاً عن أصقاعه الجبيلة ليجذب السياح إليها ويربح منهم مئات الألوف من الليرات كما فعلت سويسرا واغتنت بعد فقرها بكثرة تشويق العالم إلى زيارة ربوعها وكما فعلت فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها من أصقاع أوروبا وأميركا مثل مدينة دالاس في ولاية تكساس في الولايات المتحدة فإن أهلها كانوا سنة ١٨٨٠ عشرة آلاف نسمة فأزمع بعضهم أن يؤسروا نادياً سموه نادي المئة والخمسين ألفاً أي أن مدينتهم ستكون سنة ١٩١٠ مئة وخمسين ألف نسمة وما برحوا يتذرعون إلى ذلك بكل حيلة حتى بلغ عددهم سنة ١٩٠٤ ٨٣ ألفاً وتوصلوا إلى أن قال الرئيس روزفلت في خطاب له أن شمالي تكساس هو حديقة الرب ومدينة دالاس تطالب ويحق لها ذلك أن تكون نقطة دائرة هذه الحديقة.

نعم إن الإعلان أساس من أسس الثروة اليوم بل هو سبب من الأسباب المعقولة المشروعة وأثره في الإعلان عن الأشخاص ظاهر وكم من نابذ اشتهر يتحدث الناس في أمره ومن آخر خل ذكره لأنه لم يعرف كيف يتوصل إلى الشهرة فعاش ومات ولم يدرب أحد فالنهم اجعل الشرقيين من الناهين بحق لا الخامين الجهوليين.

دور التمثيل والأنس والاجتماع في باريز

إن ما شهدته من التمثيل العربي المنحط جداً في الديار المصرية والشامية زهدني في التمثيل على أنواعه فصرت لا أختلف إلى دار تمثيل إلا متكارهاً وذلك في المدة الطويلة لقللة غنائه وانقطاع الرغبة فيه وأعلن ذلك بأن التمثيل لم يعهده العرب أيام حضارتهم بل لم يكن لهم

ما يشبهه في قرطبة ولا في بغداد ولا في دمشق ولا في القاهرة أيام عزها ولذلك قلنا ما ل أبناء العرب إليه ميل الغربيين له وقدروا مزاياه حق قدرها.

ولما حننت باريز كان من أوائل المسائل التي توخيت دراستها حالة التمثيل في الغرب والسر في توفر أهله عليه وخدمتهم له كما يخدم الشعر والموسيقى والخطابة بل جعلوا هذه الفنون خادمة للتمثيل وأصبح عندهم من ضروريات الحياة كالطعام والشراب لا حياة بدونها وكذلك التمثيل لا حياة روحية بدون الاختلاف إلى دوره ولو مرة في الشهر إن لم يكن مرة أو مرتين في الأسبوع.

والتمثيل في باريز من أعظم ملامحها وقل أن تجتمع لعاصمة ما اجتمع لها من ضروبه ولشدة عناية الحكومة به تنقل من مائها كل سنة أربعة دور تمثيل مبلغاً تسعين به على تحسين حالتها فتمنح الأوبرا ثمانمائة ألف فرنك والتياترو الفرنسية ٢٤٠ ألف فرنك مع الدار وتعطي الأوبرا كوميك ٣٠٠ ألف وتعطي الأوديون ١٠٠ ألف فرنك وفي باريز ٥٣ دار تمثيل كبرى ذهبت إلى أشهرها مثل الأوبرا والتياترو الفرنسية والأوديون والشاتليه وساره برنارد والفودفيل وغيرها.

فكنت كلما ألفت اصطلاحاتهم في أحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم ومظاهرهم ورقصهم وغناهم تبين لي سر تعالي الغربيين بالتمثيل وأنه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عميلة ودار سنوى وارتياح أرواح فلا عجب إذا عدوه من أكبر العوامل في فوضهم وتثقيف مجتمعاتهم وشغفوا بفصوله ولا شغف الشرقي بفصوله وحرص الفرد منهم على ساعاته حرصه على عزيز أوقاته.

أما دور التمثيل فهي قصور فخمة هندسوها على ضخامتها بحيث لا يحرم الحضور على اختلاف درجاتهم من سماع ما يقال على مسارحها ورؤية ما يعرض فيها من المشاهد والمناظر. وكفى بأن دار الأوبرا كلف بناؤها ثلاثين مليون فرنك وذرعها أحد عشر ألف متر. وأقل دار تمثيل تساوي عشرات الألوف وبعضها مئات الألوف من الليرات وإن مما يبهج جوف الموسيقى في الأوبرا وقد حرزته بمائتي شخص وجوف المثلثات والراقصات والمثنيين على المسرح وما أظن جهرته تقل عن خمسمائة.

وإذا عرفت أن الأوبرا تدفع لأحد ممثليها ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة أي ١٢٨ ألفاً عن ٦٤ ليلة في السنة وتدفع لغيره من المثنيين رواتب تختلف بين ٨٥ ألفاً إلى ٣٠ ألفاً. وعن كل ليلة يعني فيها كاروزو عشرة آلاف فرنك وتداول بعض المثلثات أربعة آلاف فرنك في الشهر جاز لنا أن نستقل إعانة الحكومة للأوبرا ونحكم على كثرة دخلها وخرجها. ولقد كنت أعتل نفسي في حضرة أعظم فصحاء الأرض وعلماء الاجتماع والنفس ساعة تشتهي إلى مسعى أصوات المثنيين والمثلثات وتتفق ألسنتهم بكلمات الحكمة والأدب ويشخصون الفضيلة في أهي مظاهرها كأنك تراها فلا أتمالك من توفير المثنيين والمثلثات وإكبار فائدة التمثيل. المدارس لتثنية الصغار في وقت معين من السن ودور التمثيل مدارس دانية لنصغار والكبار تنقنهم من أسير السبل حكمة وآداباً وتنقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة.

حضرت رواية مثل الأوراق في الاوديون ورواية الباريكاد لبول بورجه في الفودفيل ورواية جان دارك في تياترو ساره برنارد ورواية الجندي الصغير في الشاتليه فكان يخیل لي وأنا أسمع وأرى أن الأمر واقعي وأن هذه المشاهد حدثت الآن وقد اجتمع جمال الصوت

إلى جمال الوجود إلى جمال الكلام إلى جمال الهدام إلى جمال المكان إلى جمال النظر وأقل هذا مما يستهوي النفس فلا تدري أي شيء ترى ولا أي فائدة تعي.

وما أظن أكبر منقطع لو حضر التمثيل في مثل هذه الدور العظى يستطيع أن يعيب شيئاً مما يشهد. وأي عين لا تقع على ساره برنارد أشهر ممثلة فرنسية وهي في الخامسة والستين من عمرها تمثل دور جان دارك وهي في التاسعة عشرة فتظهر كأنها هي بصوتها وحركتها ونضرة وجهها ولا ترتاح وتعجب وأي أذن تسمع الحكمة في رواية الباريكاد يقولها أحد الممثلين بصوت رخيم إن الطبقات الاجتماعية كالأمم يضع حقها في حفظ ما لم تقو على الدفاع عنه. ولا يفكر طويلاً.

ولقد رأيت في دور التمثيل حتى ما يوصم منها بأن فيه شيئاً من الخلاعة مثل مولن روج أن الأدب يغيب عنى السامعين والناظرين. وإن قاعات الاستراحة بين الفصول ليسير فيها الخرد العين كاسيات عاريات معطرات متبرجات ولا ترى إلا من يغض الطرف حياءً وأدباً. والغالب أن النساء ينسبن لنظالي التمثيل ثيابهن وأزيتهن كأنهن في بيوتهن وبين صويحباتهن وأصحابهن وقتلنا تراهن في الشوارع إلا مكتسيات من النقاس بما خف محمده وقل ثمنه.

أما سائر أماكن الطرب كحبال السماع والموسيقى والمراقص العامة فكثيرة جداً في باريس وأحسنها ما كان على جوانب الجواد العظى أو بالقرب منها ويكون فيها المرء بحسب مبلغه من التهذيب. وموسيقى الإفرنج وعزفهم وزفهم يحسنها الشرقي مع طول الألفة لها وأنسة ومن لم يعرف عندهم ولو أحد هذه الأنواع الثلاثة استغربوا أمره وعدوه محروماً من لذائذ الدنيا ساقطاً من رسوم الهيئة الاجتماعية. ولكل قوم عاداته وأخلاقه

يحرص عليها كثيراً ولا يرى فيها حرجاً ولا نكيراً سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

من باريز إلى الأستانة

قضيت شهرين اثنين في هذه العاصمة طفت المعاهد ورأيت المشاهد وعرفت العامل الجاهد وتبينت العالم الجاهد وطعمت الجشب والشهي من الطعام ووصنت السير بالسرى وعمل الليل بعمل النهار ورأيت العنة في حاناقهم ومطاعنهم وراكلت الأغنياء في مقاصفهم وشاركتهم في نعيمهم واختنطت بطبقاتهم أسمع عباراتهم ولم أتكف من غشيان كل مكان أرجع منه بقائدة مستطعاً طنع خلق جاريماً من الاختيار فيه عنى عرق فكانت عيني قلّ النظر وأذني تسأم السماع وذمهي يتأفف من التفكير وقنبي يتخوف كثرة الوعي. ومع ما صرفته من الوقت والقوة خرجت من هذه المدينة وفي النفس منها أشياء لم أتمكن من دروس معالمها ومجاهلتها من هذه أماكن الرياضات البدنية والنعب عنى اختلاف ضروبه وزيارة مجاري العاصمة تحت الأرض وسراديبها والاعتبار بقبورها ومدافنها وهي مزينة كقصور الأحياء ومقطعة إلى طرق ومناطق.

وفي يوم بدأ نهر السين بفيضانه المشؤوم الذي طغى على السدود والسكرور فدكها وبثقها وأودى بالأموال الجسيمة من ناطق وصامت ركبت القطار وقت الظهر إلى الحدود الألمانية فكان نهر الموز والمارن هائجين حتى طغت مياههما عنى السهول والأودية ولم يصل القطار إلى نانسي على الحدود وبينع ستراسبورغ في أرض الألمان وقاعدة الأتراس إلا وقد انقلبت تنك الأمطار ثنوجاً وذلك الهدير مكوناً ولون تنك المياه الكدرة بنون الشج الأبيض الناصع وبلغنا مونيخ عاصمة مملكة بافيرا الألمانية صباح الغد فوقف القطار